

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحتري"

The historical dimension and its relationship to the semantic side in "Sinya al-Buhturi"

فطيمة خياري¹

¹جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله- الجزائر- fatima.khiari@univ-
alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/10 تاريخ القبول: 2023/02/09 تاريخ النشر: 2023/03/09

ملخص:

إنّ أغلب القصائد تتسمّ بالحضور القويّ للمكان، لما له من تأثير كبير على النفس الإنسانية، حيث إنّهُ يمثّل الرّوح و الإلهام الذي يجعل الشّاعر يهيم هنا وهناك باحثا عن الرّاحة منقّسا عن الألم، سيّما وإن كان المكان يثير فيه مشاعر جيّاشة ، تؤثّر بالسّلب أو الإيجاب عليه .

وتكمن أهميّة الدّراسة -البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحتري"- استحضار أهميّة المكان في سينية البحتري، ليس ذلك المنبت الأرضي الذي ولد فيه الشّاعر فحسب، وإنّما هو القوّة التي تجعله يتغنى ويحزن يبحث ويسكن، مرصّعا قصيدته بدلالات عدّة. فارتبط المكان ارتباطا وثيقا بالإنسان وتجاربه. وكشف لنا علاقته بالشّاعر، ما أدّى إلى تأثّر كل منهما بالأخر لتشكيل باعث يسهم في تكوين خلق شعري جديد

كلمات مفتاحيّة: البحتري، السّينية، الحضارة العباسيّة، المكان.

Abstract:

Most of the poems are characterized by the strong presence of the place, because of its great influence on the human psyche, as it represents the spirit and the inspiration that makes the poet wander here and there looking for comfort and a way out of pain,

فطيمة خياري

especially if the place arouses strong feelings in it, affecting negatively or positively it.

The importance of the study - the historical dimension and its relationship to the semantic aspect in "Siniyat al-Buhturi" - lies in evoking the importance of the place in Siniyat al-Buhturi, not only the earthly spring in which the poet was born, but rather the power that makes him sing, grieve, search and live, studding his poem with several connotations. The place was closely linked to man and his experiences. And he revealed to us his relationship with the poet, which led to each of them being affected by the other to form a motive that contributes to the formation of a new poetic creation.

Keywords: Al-Buhturi, Al-Siniyah, Abbasid civilization, the place.

المؤلف المرسل: فطيمة خياري

1. مقدمة:

تميّز العصر العباسي بطابع حضاري عرف نضجا وحركة بفضل الترجمة التي كان لها صدى كبيرا في التأثير على شعرائها، الذين غاصوا في أغوار المعاني فاستلهموا وأبدعوا من واقعهم ما جعل شعرهم يتميز بنوع من المحاكاة لأحداث عصرهم والحالة الشعورية التي يعيشونها. ونتيجة لذلك حاول كثير من الشعراء تمثّل هذا الواقع بكل تفاصيله، وأسقطوه على أشعارهم وألبسوه طابعا فكريا تتجلى فيه معالم حضارتهم، ومن بين هؤلاء الشاعر الفدّ الكبير البحتري، الذي راح يبحر في المعاني ويلبسها ثوب الإثارة بما يتناسب وروح العصر الذي يعيش فيه، مستعينا بأطلال الفرس من خلال الرحلة التي قام بها نتيجة المعاناة، فكان في ذلك مقلّدا من سبقه من الشعراء ولكن بطريقة تجديدية فتحت الباب نحو قراءة واسعة متعدّدة، تصلح أن تكون متناسبة مع أيّ عصر مهما اختلف. و في

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

ذلك يقول ابن الأثير: "ليس لقائل يقول: إنَّ لأحد من المتأخِّرين معنى مبتدعاً فإنَّ الشَّعر قديم منذ نطق باللُّغة العربيَّة ، وأتته لم يبق معنى مبتدعاً إلَّا وقد طرق مراراً...والصَّحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة، ومن ذا الَّذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له " (ابن الأثير: 1939م، ص219)

وتأتي أهميَّة الدِّراسة -البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"- من كونها تحاول أن تقدِّم دلالة قويَّة، وإشارات جليَّة على نصوص البحري الشعريَّة من خلال سينيته، لاحتوائها على الطَّاقة الإبداعية المتمثلة في قدرة شاعرنا على تمثّل الفكر والثَّقافة العربيَّة. ومن ثمَّ البحث عن طبيعة النَّصِّ الشعريِّ الَّذي يعكس طبيعة الثَّقافة الشعريَّة للشَّاعر المنتشرة في عصره، العصر الَّذي عرف تدهور العلاقات السياسيَّة إلى حدِّ كبير نتيجة تغلغل الأتراك في نظام الحكم، وكانت السِّينية خير نموذج جمعت لنا كمًّا هائلاً من المعلومات في إطار فنيّ شيق.

وعليه كيف ساهم المكان في إبراز الأبعاد الدلالية في التَّاريخ للحضارة

العباسيَّة عهد المتوكِّل، وما مدى تأثيره على نفسيَّة الشَّاعر البحري ؟

سنحاول الوقوف على أهمِّ ما في الموضوع من دلالات نستشفَّ من خلالها تأثير الدَّولة العباسيَّة عهد المتوكِّل على حياة البحري، من خلال ذكر دور المكان في التَّاريخ لذلك العصر. وسنقف قليلاً على الحياة العباسيَّة في الفترة الَّتِي عاشها شاعرنا ، الحياة الَّتِي عرفت انعكاساً لمختلف النِّواحي السياسيَّة والاجتماعيَّة والعقليَّة والأدبيَّة ممَّا كان لها الأثر البالغ في تكوين شخصيَّة البحري . ومن ثَمَّة تتطلَّب طبيعة البحث اتِّباع المنهج التحليلي الوصفي.

عرفت الحياة العصر العباسي مرحلتين مختلفتين "فإذا كان العصر العباسي الأوَّل (132-232هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدَّولة وبنفوذ الفرس فيه. فإنَّ العصر العباسي الثَّاني (232-334هـ) يتَّسم بضعف الخلافة، وضياع

فطيمة خياري

هيبة الخلفاء، وفساد شؤون الدولة، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حدًا كبيراً في هذا العصر" (خفاجي عبد المنعم: 2004م، ص 13)

2. النظام السياسي :

تميّزت الحياة السياسيّة بعدة منعرجات، ففي عام 218 هـ مات المأمون كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس. فقد تحوّل الحكم من أيادي الفرس إلى أيادي التّرك ما أدّى إلى تدهور أوضاع الحضارة العباسيّة، فسيطروا على الخلافة والخلفاء وتغلغلوا في جميع مناصب الدولة، وقد ساعدتهم في ذلك الخلفاء أمثال الواثق وجعفر المتوكل بن المعتصم. إلا أنّ الخليفة المتوكل ندم وحاول الحدّ من سيطرتهم وتفترغ لإزاحتهم، وفي خضمّ ذلك تعرّض للاغتيال في قصره الجعفرى من طرف ابنه المنتصر بمساعدة باغر التّركي حارس المتوكل مع عشرة غلمان من الأتراك، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان في أواخر عام 247 هـ ومنذ ذاك والأتراك يتحكّمون في خلافة الخلفاء، وهؤلاء يحاولون الحدّ من نفوذهم ويتعرّضون للتّعذيب والقتل، إلى أن جاء عهد المعتمد (256-279 هـ) حيث اشتدّ الخلاف بين فرق الأتراك، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام 257 هـ الذي أصبح السلطان الفعليّ فصارت كلمته هي العليا على الأتراك وقوادهم، ممّا حسن الأحوال .

وعليه فقد دامت الخلافة العباسيّة خمسة قرون انقسمت فيه التطوّرات إلى خمسة أدوار سياسيّة منها نذكر دورين في فترة البحري :

أ- دور القوّة المركزيّة للخلافة العباسيّة وتمتدّ من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل .

ب- دور الجنديّة حيث كانت الخلافة تحت حكم الأتراك الذين نظّمهم المعتمد (ينظر: خفاجي عبد المنعم: 2004م، ص 14-15-16-21)

3. النظام الاجتماعي :

إنّ الحديث عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي تتوزّعها ثلاث طبقات متمثلة في :

أ - طبقة الخلفاء والوزراء والقوادر والولاة، ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار والإقطاعيين، وهؤلاء أهل الطبقة العليا ممّن كانوا يغرقون في النعيم والمتعة .

ب - طبقة رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصنّاع الممتازين والعلماء وهؤلاء أهل الطبقة الوسطى الذين يأخذون رواتب من الدولة .

ج - طبقة العامة من الرّزاع وأصحاب الحرف الصّغيرة والخدم والرقيق وأهل الذمة، وهؤلاء أهل الطبقة الدنيا الذين يقدمون أسباب الحياة للطبقتين السّابق ذكرهما (ينظر: عقيل الطيّب عبد الرّحمن محمّد: 2006م ص 19-20)

4. النظام العقلي :

أمّا فيما يخصّ الحياة العقلية فقد كانت مزدهرة عمّا كانت عليه في الفترة الثّانية من العصر العباسي، وذلك نظرا لانتشار حركة النّقل من الثّقافات الأجنبيّة، وظهور فلاسفة في شتى العلوم اللّغويّة والبلاغيّة والنّقديّة والتّاريخيّة والإسلاميّة والكلاميّة. ولقد كان من نتاج الفتوحات الإسلاميّة اتّصال العرب بغيرهم من الشّعوب المختلفة، فحاولوا التّعرف على ثقافتهم ومعارفهم، فناقشوهم وناظروهم في مسائل الدّين، و رأوا عندهم من أساليب النّظر والاستدلال وما كانت تتأثّر به من آراء فلسفيّة، ما جعلهم يكتّبون على معرفتها .

ثمّ إنّ الموالي من الأجناس المختلفة من أقبل على الإسلام، فأخذوا ينشرون بين العرب ما عرفوا في لغاتهم الأصليّة من ثقافات ومعارف ونزعات، ضف إلى ذلك بروز مدارس ودوائر علميّة جعلت العرب يأخذون الكثير منها، بحكم دفاعهم

فطيمة خياري

عن دينهم وما أصاب حياتهم من تطوّر، فأصبحوا إذ ذاك أصحاب دولة متحضّرة .

وقد كان للترجمة في عهد المنصور دورا بارزا في هذا المستوى، ممّا عرف من ترجمة ابن المقفّع عن الفارسيّة بعض الكتب التاريخيّة والسياسية والأدبيّة . لنصل إلى عصر الرّشيد الذي أنشأ بيت الحكمة وأدار الترجمة، الّتي ازداد الاهتمام بها من طرف المأمون في مختلف العلوم، ولاسيما علمي اللّغة والنحو اللّذين تأثّرا بطرائق تلك الثّقافات ومناهجها في النّظر والبحث (ينظر: ضيف شوقي: 1987م، ص132)

وطبيعيّ أن تؤثّر هذه العلاقات الثّقافيّة الجديدة في عقليّة العبّاسيين وشعرائهم الّذين كانوا على اتّصال وثيق بها إنّ كلّ ذلك ساهم إلى حدّ كبير في نهضة الأدب بنوعيه النّثري والشّعري، هذا الأخير الّذي أنتج لنا شعراء كان لهم صدى كبيرا في السّاحة الشعريّة والنّقديّة وعلى رأسهم الشّاعر البحري. تلك كانت أهمّ المحطّات الّتي مرّت عليها نظم الحياة في العصر العبّاسي أيّان فترة البحري ، والّتي كان لها الأثر البالغ في تكوين شخصيته الشعريّة.

5. دلالة سينيّة البحري وعصره التّاريخي :

سنحاول فيما يلي تحديد الأسباب التّاريخيّة مجتمعة، الّتي ساهمت إلى حدّ كبير في إخراج البحري لهذه السّينيّة إلى الوجود، وذلك من خلال تحليل الأبيات العشرة الأولى من القصيدة .

إنّ بذور ظهور الأتراك -قبل استيلائهم على الدّولة العبّاسيّة- كان في عهد المعتصم أيّان بنى لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، حيث سكن معهم وظلّ الأمر حاضرا للخلفاء حتّى أواخر عهد المعتمد سنة 276هـ لقد كان لذلك أثر بليغ وخطير في تاريخ الدّولة العبّاسيّة، ذلك أنّ التّرك لم يكونوا أصحاب ثقافة ولا

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

مدينة ولا حضارة، لم تكن لهم صنعة في الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الفنون أو الآداب، ولا كانت لهم قواعد في السياسة، الأمر الذي جعلهم يستولون على زمام الحكم (ينظر: ضيف شوقي: 1973م، ص11)

إلا أنّ المتوكّل تفتّن إلى نفوذهم ممّا حمل نفسه جاهدا على التخلّص منهم، لاسيما بعدما رأى طمعهم في الدّولة يزداد "وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم كثيرون الدّسائس والمؤامرات، كثيرون الطّمع في الأموال، والعبث بالأمن" (خفاجي عبد المنعم: 2004م، ص14)

لقد حاول (المتوكّل) بمعونة وزيره (الفتح بن خاقان) أن يبني جيشا يفتك بالأتراك، إلا أنّ الأمور قد ساءت بينه وابنه (المنتصر) وليّ عهده الذي قام بمساعدة الأتراك على اغتياله ووزيره، وكان ذلك عشية يوم الأربعاء من شهر شوال سنة 247هـ، حيث ماتا ميتة شنعاء دبّر فيها المنتصر مكيدة قتل أبيه أن ألصق التّهمة بوزيره الفتح بن خاقان (ينظر: الطّبري: د.ت، ص227-228-230) وبمقتل الخليفة المتوكّل، دخلت الخلافة العبّاسيّة منعطفا جديدا، اشتدّت فيه سطوة الأتراك على مقاليد الأمور، وأصبح بأيديهم تماما اختيار الخليفة وعزله. ولم يبق للخلفاء شيء من الممارسة السياسيّة سوى الاسم فقط .

إنّ المؤامرة الشّنيعة التي وقعت للخليفة المتوكّل ووزيره كان لها أثر بالغ في نفسية البحري الذي قرّر أن يصون نفسه من كلّ ما يشوبها، وأن يترقّع عن كلّ جبان وهو هنا إنّما يقصد كلّ من مدحهم إذ يحاول أن يحفظ نفسه لما أخطأ في حقّها وذلك حين أراق ماء وجهه أمام ممدوحيه بدافع التملّق والمال، إنّه يحاول أن يعيدها كرامتها التي كلّفته سنين طويلة جعلته ينغمس في لذات الدّنيا ويدنّس نفسه، فهو مدح من لا يستحقّ المدح ممّن جاء بعد الخليفة المتوكّل، وذلك فقط إرضاء لهم .

فطيمة خياري

معروف عن البحثري أنّه عاش معظم حياته شاعر البلاط الرّسميّ مادحا للخلفاء يسعى وراء التّكسّب والثّراء، على أنّ صلته بالخليفة المتوكّل كانت قويّة. لذا نجده يحاول إسقاط حزنه لفجع مقتل الخليفة رافضا للقيم التي آلت إليها الخلافة ومع ذلك وقف أمام مصائب الدّهر بصبر وثبات، وصمد رغم ما كان يعانيه من تعاسة وشقاء، فنجده يفخر ويعبّر بعروبته، ويظهر ذلك من خلال ذكر ناقته "عنسى" التي ترمز إلى الحياة البدويّة التي عاشها شاعرنا في مسقط رأسه (منبج)، وهذا دليل قاطع على أنّه محافظ على بداوته حيث نشأ، فلم تؤثّر عليه حياة المدينة حيث عاش "فقد نشأ البحثري في بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر" (خفاجي عبد المنعم: 2004م، ص 203)

إنّ حياة البداوة كما هو معلوم تفرض على أهلها صون النّفس من كلّ ما يدنّسها والتّرفّع عن الصّغائر، والحفاظ على القيم وإن ضاق العيش، وهو ليس بالأمر اليسير بالنّسبة لشاعرنا الذي يقول :

صُنّت نفسي عمّا يدنّس نفسي
وترفّعت عن جدا كلّ جيس
(البحثري، ص1152)

ذلك أنّ العصر الذي يعيشه لا يرحم ن إنّه عصر استيلاء الأتراك على مقاليد الحكم .

إنّ وقوف الشّاعر على الأطلال جعله يستعيد ذكرياته الحزينة، إنّه تساوي شيخوخته التي شارفت على الانهيار، ظاهرا في تكرار صوت الأنا من خلال الكلمة (نفسى) المكرّرة مرتين، الأمر الذي يدلّ على أنّ الشّاعر صحا من غيبوبة التّرف والرّخاء دونما اعتبار لكرامة النّفس التي فقدتها طمعا في المال ورضا الممدوحين عنه. وهو عندما يبدي تماسكه واعتزازه بنفسه، فإنّه يترفّع عن طلب العون من الجبناء والأندال فيحاول أن يسترجع أنفاسه ويواجه مصيره، ويعمل جهده على تماسك نفسه نظرا لواقعه المرير:

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

وتما سكت حين زعزعتي الدهر
التماسا منه لتعسي ونكسي
(البحري، ص1152)

عاشه في رخاء أيان مدح الخلفاء، صار لا فائدة منه في مقابل كرامته التي يتمنى لو
أنه يسترجعها، فيموت طلبا للعز على أن يعيش مع الذل .

أدرك البحري أن كل شيء يهاوى ويفنى، وأمن أن احترام الذات وتطهيرها
من الدنس أئمن من أموال الدنيا. ولما ينظر إلى ما آلت إليه حاله طيلة عمره لا
يجد إلا ما يكفيه من أسباب العيش ولا يفضل منه شيئا، وذلك بعد أن طقت
الأيام ما كسب من مال وما تمتع به من شباب .

إن كل ذلك أصبح لا معنى له في مقابل الكرامة التي غبتها الأيام، وحطت من
قيمة النفس، وكأن به يقول أن هذا الألم بفقدان (المتوكل) قد وصل به إلى غاية
يكاد لا يهّمه شيء في هذه الحياة، وشوقه للحياة زال، قلل من شأنه هذه الأيام
ونقصتها :

بلغ من صباة العيش عندي
طففتها الأيام تطفيف
بخس(البحري، ص1153)

ويمثل لنا البحري صورة الحياة البدوية في ذلك العصر من خلال ذكر
الإبل الضمء التي يشير إليها بكلمة (خمس) فترعى ثلاثة أيام، لترد في اليوم الرابع
وبين الإبل التي رفعت أي نالت طيب العيش ولينه، فترد الماء متى شاءت.

وبعيد ما بين وارد رفه
علل شربه ووارد خمس(البحري، ص1153)

ويلاحظ مما سبق أن البحري يعقد مقارنة إذ يكتي بين طائفتين من
البشر: إحداهما تعاني الحرمان وضيق العيش، وهي التي ينسب البحري نفسه
إليها نظرا لما آل إليه وضعه، والأخرى تنعم بطيب العيش (ينظر: فوزي عيسى:
2011 م، ص55)

فطيمة خياري

وغريب أمر الشّاعر إذ ينسب نفسه إلى طائفة المحرومين، وهو الذي لم يترك وزيرا ولا كاتباً إلا ومدحه وأخذ جوائزه ضيف شوقي: 1973 م، ص 281

ثمّ إنّه "ظَلَّ يلحف في سؤال العطاء والضّيباع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه... الأمر الذي جعل عمّال الخزّاج يثقلون عليه، وهو كلّ يوم يمثّل بين أيديهم شاكياً ملحّاً أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبون منه، ولا يكاد يظفر بما يبتغي منهم فيفكّر في مبارحة العراق" (ضيف شوقي: 1973 م، ص 281-283)

إنّ كلّ ذلك جعل شاعرنا يعاني نوعاً من الحرمان في الهدوء والسّكينة، فصارت أيّامه كلّها خوف وهاجس من سيطرة الأتراك على أمواله .

والشّاعر من خلال المقارنة يعبر عن حاله الاجتماعيّة كيف كان في الماضي ذو سلطة يعيش لذّة الحياة ونعيمها، وكيف أصبح الآن في حاضره، إذ انقلبت الموازين في وجهه، فأصبح خائفاً على حاله بعد أن فقد كلّ ما يملكه في الماضي، يوضّحه الكلمة (بعيد) التي تحيل إلى تلك الهوّة العميقة في تمثيله لحياته .

وهو يرى أنّ الزّمان لا يرحم لأنّه أصبح يميل إلى التّكسّب في الدّنيا وحفظها فهو يراه مع الخسيس لا مع الشّهم، وهذا ما يؤلم الشّاعر وضايقه لأنّه تميّز بذلك السّلوك الخسيس أيّان كان يمدح من لا يستحقّ المدح، ويذكّره بغروره وذهاب ماء وجهه طمعا في المال :

وكأنّ الزّمان أصبح محمو لا هواه مع الأخسّ الأخسّ (البحثري، ص 1153)

ولعلّ في تكرار الشّاعر للفظ (الأخسّ) مرتين ما يؤكّد اشمئزاه من هذه الصّفة فهو يرفض الوضع الذي آل إليه الحكم في عهد الخلافة العبّاسيّة، لما أصبح الابن يغدر أباه من أجل السّلطة، وبمساعدة الأتراك أعداء الدّولة .

ويعبر الشّاعر عن ندمه الشّديد لأنّه ترك بلده (الشّام) الذي باعه بـ (العراق) حيث أمضى أكثر أيّام عمره، فهو يحسّ بالخسارة وكأنّه إنسان تاجر

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

خسر تجارته، ولم يقنع بحاله لما كان في وطنه (الشّام) وما قنع بالعيش فيه، لأنّه لو كان له ذلك لما حدث له ما حدث من الذلّ والمهانة. وفي ذلك يقول :

واشترائي العراق خطّة غبن بعد بيعي الشّام بيعة

وكس(البحري،ص1153)

ولعلّه في ذلك نادم على ما فرط فهو جريح غريب حيثما حلّ؛ لأنّه اختار العراق على بلده الشّام، وكانت النتيجة أن عاد خالي الوفاض، فلا هو فاز بالعراق، ولا احتفظ بالشّام "فرحلاته إلى العراق لم تنقطع إلّا بعد قبض الموفق على صديقه اسماعيل بن بلبل سنة 270هـ، وكأنّما كانت هذه الحادثة سببا في أن يصمّم على مبارحة العراق إلى الأبد"(ضيف شوقي: 1973م، ص284) ولعلّ ذلك يؤثّق قول الصّولي لما رأى أنّ البحري نظّم السّينية بعد مقتل المتوكّل بثلاث وعشرين سنة (277 هـ)، حيث بدأ يحرك ساكنا للهرب من العراق ، خصوصا بعد استيلاء الأتراك عليها وفرضهم الضّرائب على أهلها .

لقد انقلبت في وجهه الموازين ومع ذلك لازال متماسكا مفتخرا بنفسه :

لا تزرنني مزاولا لاختباري بعد هذي البلوى فتنكر مسّي(البحري،ص1153)

إنّ ما ألمّ بشاعرنا جعله يترفّع عن كلّ ما يشينه من خلال استعماله أسلوب النّهي (لا تزرنني) فهو لا يرض لنفسه المهانة، ولا يقبل لأحد أن يختبر شدّة صبره، وأثر البلوى على نفسه. لهذا نجده يترفّع عن كلّ ما حدث له بدعوى أنّه قادر على مواجهة محنته، وهو أمر عرف به البحري فقد كان "متفائلا، حسن الظّنّ بالأيام، يحبّ الاستمتاع بالحياة والتّنعم بلذائدها، ممّا جعله لا يرى إلّا الجوانب الإيجابية في عصر امتلأ بالشّرور والمثالب...يكره العنف والدّماء، ويؤثر السّلم والعافية..."(الصّولي،ص 123)

ورغم ما كان يميّز به البحري من خصال سيّئة، إلّا أنّه لم يكن يوما مذلولا وهو الذي تنعم بطيب العيش وعلو المكانة بين الخلفاء :

فطيمة خياري

وقديما عهدتني ذا هنات

آبيات على الدنيات

شمس (البحثري، ص 1153)

لقد عرف شاعرنا كذلك بأنه كان كافرا للإحسان، وعدم الوفاء، ذلك أنه لما ينقلب الوضع على من مدحهم، فإنه يسارع إلى مدح خصومهم ابتغاء المال والنفع (ينظر: شوقي ضيف: 1973 م، ص 278) ومعروف عنه أنه "كان من أبغض الناس إنشادا، يتشادق ويتزاور في مشيه، مرة جانبا ومرة القهقري..." (خفاجي عبد المنعم: 2004م، ص 200)

" وكان فيه إعجاب شديد، إذا أنشد يقول: ما لكم لا تعجبون؟ أما حسن ما تسمعون؟" (ابن رشيق القيرواني: ص 204) لقد كان يتبجح بشعره، ويتفاخر أمام الناس بحسنه سائلا إياهم شكره .

ومما سبق نلمس أنّ الشاعر استطاع أن يحرك مشاعر المتلقي عن طريق فهم مكنونه النفسي وما يحسّ به، لاسيما وأنه يعاني صراعا نفسيا وتناقضا مع حاله المرير. فيبين ندمه الشديد عن تخلّيه على الشّام (حياة البداوة) في مقابل العراق (حياة الرفاهية) حيث تكسّب وكسب وعلا شأنه، ومع ذلك عاد خال الوفاض. كلّ ذلك يتبدّى من خلال عقده مقارنة بين ماضيه وحاضره متمثلا في المقابلة الآتية :

حياة الرفاهية — تقابلها حياة البداوة (البيت الرابع)

شراؤه العراق — بيعه الشّام (البيت السادس)

ولعلّ في حياة الرفاهية هي التي جعلته ينسى قيمه ومبادئه، ويندم على ما فرط ليحاول الترفّع عمّا بدر منه . لذلك نلاحظ شدّة ارتباط الأبيات (الرابع، السادس، الثامن) مع بعضها البعض لتشكّل دورة حلزونية متشابكة، كتماسك الشّاعر مع نوبات الألم والحزن، يبرّر ذلك ارتباطها الوثيق بالبيت الأوّل، كتبرير الشّاعر لحاله من خلال لفظة (صنت) ورفع اللبس عن لومه من خلال اللفظة

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحرّي"

(ترفّعت): لأنّه كان يعيش في وقت ألزمه أن يتعامل بتلك الطريفة، وهو الذي قضى حياته قرب المتوكّل في ترف وهناء.

ولمّا قُتِل الخليفة ووزيره الفتح بن خاقان اشتدّ حزنه، ومنذ ذلك الحين عاش حياته مجاملة فتقلّب مع كلّ حال، ومدح الخلفاء الخمسة الذين عرفهم بعد المتوكّل...وماشى كلّ سلطة وكلّ سياسة في خوف وحذر" (حنا الفاخوري: 1986م، ص743)

ظهر البحرّي في عهد اضطربت فيه أمور الدّولة العبّاسيّة، التي عرفت بتضاؤل سلطتها بسبب التّفوذ التّركي، ودسّ الدّسائس، والأزمة الاقتصادية...كلّ ذلك يشجّع على التّسوّل بكلّ الطّرق، "ويحفّز الشّعراء على التّكسّب في غير حياء، وهكذا كان فمال البحرّي إلى الاستجداء في تكالب شديد، وإلى المدح ببذل له ماء العبقريّة في غير حساب" (حنا الفاخوري: 1986م، ص472) لذلك نجده قد عاش جلّ عمره يتنعم في قصور الخلافة وأعمدة الحكم العبّاسي، ينهل من ينابيع الحضارة الفارسيّة في شتّى صورها، ويحبّ الفنّ الفارسيّ في البناء والرّسوم، ويشيد به (اليطي صالح حسن: د.ت، ص109)

لقد جاءت أبيات الشّاعر مختزنة بمعان نفسيّة تكشف ألمه مرتبطة كلّها في سياق البيت الأوّل، وسببا في رغبته صون نفسه التي يبزرها حرف السّين المشحون بكلّ دلالات الحزن والألم والنّدم والشكّ والحيرة من جفاء ابن عمّه منه:

ولقد رابني نبوّ ابن عمّي بعد لّين من جانبيه وأنس (البحرّي، ص1153)

فالبحرّي يشكو نفور ابن عمّه منه، وإعراضه عنه بعدما عهد فيه من لّين وألفة وهو الذي مدحه في يوم فصح . وقد ذهب الصّولي إلى أنّ ابن عمّ البحرّي هو الرّاهب عبدون بن مخلّد، وهو من أصل يمنيّ مثل البحرّي، يرجع نسبه إلى الحارث بن كعب وهو مذحجي، وهو أخو صاعد بن مخلّد الذي وليّ الوزارة للموقّق والمعتمد، وربّما أرجعنا السّبب في نفوره من شاعرنا بسبب ما بدر من الخليفة

فطيمة خياري

الموقِّق -الذي كان شاعرنا شديد الارتباط به حيث مدحه كثيرا- فقد قام الموقِّق
بالقبض على أخيه صاعد بن مخلد وعلى ابنيه ونهب منازلهم
(البحثري، ص1153، 456)

امتلأت نفس البحتري همًا، وها هو ذا يشدّ رحاله بـ(عنس) ناقته الصّلبة
القويّة (ينظر: ابن منظور: ص 1363) بطريقة تقليديّة إلى قصر آل ساسان في
رحلة يسليّ بها نفسه، عسى أن يجد فيها ما حلّ بهم من مصيبتة وجميعته بفقد
أهله وأحابيه الذين عدا عليهم الزّمن، وأغارت عليهم صروف الدّهر، فتركوا
الشّاعر مهموما حزينا، لأنّ حال كل منهما تلائم الآخر يقول:

وإذا ما جُفيت كنت جديرا أن أرى غير مصبح حيث أمسي
حضرت رحلي الهموم فوجّهـ ستُ إلى أبيض المدائن عنسي

(البحثري، ص1153)

ومن البيت السّابق نستشّف أمرين يتمثّلان في:

الأول: أنّ الشاعر يحنّ إلى المكان حيث عاش المتوكّل .

والثاني: هو الناقّة التي تحنّ إلى أوطانها حينئذ شعرياً موازياً لحنين الشاعر، من
خلال مدائن الفرس التي تذكّره بمساعدتهم لأهله اليمانيين .

ليس حنين الشّاعر إلى الماضي إلّا التمني العميق أن يتوقف التّغيّر الرّهيب
والصّراع المرير الذي يعايشه، بسبب مقتل المتوكّل من جهة، وسيطرة الأتراك من
جهة أخرى، والتي كان لها أثرا كبيرا على حياة شاعرنا. وأسى الشّاعر هنا، يظهر من
خلال استحضار حاضره الذي آل إليه مقارنة بماضي حضارة كسرى الفرس، وهو
مائل في ذهنه، يستحضره بحسرة وأسى هما انعكاس لخسارته .

وعليه فقد عرض لنا البحتري أيّاما من حياته يلخّصها ندمه الشّديد على
ما عاشه في الماضي باديا في أوّل القصيدة من خلال اللفظة (صنت) ما هو إلّا "نوع
من المعارضة وركوب أساليب السّلف، واستيحاء مخلفاتهم يقصد به الدّعوة إلى

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

الإصلاح" (مفتاح محمد: دت، ص132) الأمر الذي جعله ينزّه نفسه عن كل ما مرّ به سابقا محاولة منه على إصلاح نفسه ومعارضة منه على أحداث عصره، ليحاول الهروب منه إلى ماضٍ ولى واندثر علّه يجد فيه أنسه، وينسى فيه غربته وحزنه .

و عندما نقرأ السّينية في شكلها العام فكأننا نقرأ قصة تاريخية، ولعلّ البحري أحسن توظيف السرد خاصة وأنّه في مقام كتابة تاريخ ولى . إنّه في هذه القصيدة، وكما هو حال جُلّ الشّعر العربي القديم نجده يستخدم تقنية السرد: يمثّلها الألفاظ (صُنّت، تماسكتُ، اشتراي، بيعي، حضرت، نقل، تصف، عمّرت...) فنجدّه يحكي عن نفسه أولاً لينتقل بعد ذلك إلى وصف حال الإيوان، تعزيةً تُسليّ النفس . ثم ينتقل إلى وصف التّرحّج من خلال حكيه عن سقاية (أبي الغوث) وهكذا دواليك إلى أن يصل إلى سرد حقيقة هذا الإيوان في عهد كسرى أبرويز الذي تحوّل من عظمة وعلوّ إلى طلل تأكله الهموم.

لقد اتّخذت سينية البحري شكل قصة من خلال سرد بعض أحداثها وشخصياتها، فمثّلت لنا جزءا من تاريخ الدّولة العباسية أثناء الانهيار، وهو الأمر الذي نجده في كثير من الشّعر العربي القديم، والذي يستقصي البحث ما شأنه أن يخرج لنا خبايا التّاريخ العربي القديم. فقد وجدنا أنفسنا نتعامل مع صورة شعريّة جاءت في بناء سرديّ مبنيّ على "حكاية حدث أو أحداث متعدّدة تتسلسل في ترتيب معقول ، وتتابع واضح سواء في الأحداث أم التّصوير" (وادي طه: 1994 م، ص20)

وهذا يعني أنّ القصيدة تضمّ في بنائها اللّغويّ و الفنيّ أشخاصا و أحداثا من خلال تقنية السرد .

وجاءت السّينية تلخّص لنا تجربة الشّاعر الشّعوريّة في إطار شكليّ جماليّ. إنّها أنموذج حيّ تتداخل فيها الأحداث التاريخيّة في شكل صور و مضاميات لتصبح

فطيمة خياري

ذكريات مسترجعة تستحق لقب السّين كرويّ لها ، لما لهذا الحرف من صفات الحزن والألم والتّنفيس عمّا يعيش في صدر الشّاعر. إنّها تحمل في طياتها تنهّدات الشّاعر لزمن الماضي ممزوجا بحاضره ، ما جعله يعيش في صراع الدّكريات بمعانيها المختلفة من فرح وألم ، ويسقطها على الحاضر ما خلف لنا رؤية جديدة لواقع جديد .

إنّ ثقافة الشّاعر العبّاسيّة تضمّنت معرفة واسعة بالقرآن وتعاليم الدّين الإسلاميّ درسها في إطار فنيّ خدم موضوعه الشّعريّ، وتعامل معه على أساس تأمل عظمة الخالق - عزّ وجلّ - والافتداء بالصّبر، ويعود ذلك إلى نفسيته الحزينة والمحترّاة لما حلّ له ولعصره ، ما جعله يكثر من وصف معالم الحضارة الفارسيّة ويسقطها على عصره

يملك البحّثري قدرة هائلة على الإبداع، ولاسيما إبداع أنماط متطوّرة من دلالات الألفاظ عن طريق الانحراف بها عن معانيها المباشرة مستعينا بالصّور البيانيّة المتنوّعة ما كشف لنا المؤثّرات التي ساعدت على تكوين شخصيّة الشّعريّة، فجعل الحضارة الفارسيّة رمزا للحضارة العبّاسيّة، يجمعهما شيء واحد ألا وهو العظمة والرّفعة الذي يزول وأزمة الأحداث، ما جعل الشّاعر يأتي في مرتبة الشّعراء المجدّدين في العملية الإبداعيّة فنّا و موضوعا. فالجانب الفنيّ يكمن من خلال مهارته الفنيّة التي استطاع من خلالها التّعبير عن الواقع المعاش بجماليّات فنيّة، موظّفا فيها عناصر أدبيّة عديدة. أمّا عن الجانب الموضوعيّ فقد استهدف التّراث كمحور ورمز للصّراع القائم بين الدّولة العبّاسيّة والأتراك، محاولا أن يكون شعره همزة وصل ومعاناة بينه وبين مآسي الدّولة العبّاسيّة. وهذا تسعى السّينيّة إلى ربط الماضي بالحاضر بطريقة تجعل من الماضي عنصرا فعّالا في خدمة الحاضر والمستقبل .

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

استطاع الشاعر بفضل ذائقته الشعريّة والشعوريّة أن يرتفع بلغة شعره من اللّغة التّقيريّة المباشرة إلى لغة الإيحاء، لذلك نلاحظ تجديدا من حيث المضمون تبعا للتطوّر الشكليّ والأسلوبيّ كمحاولته تنوع موضوعات القصيدة الواحدة ضمن محور عام يجمعها، وهو اندماجه بقضية الدّولة العبّاسيّة وتفاعله معها على مستوى الواقع. وهو في ذلك أخذ عن شعراء المعلّقات أكثر، فكان إذ ذاك محافظا ومجدّدا في نفس الوقت، فوصف الطّلل كما وصفوا، وحزن وعبر كما فعلوا عن رحلتهم من خلال النّاقة، وتناول مأساته وانجراف دولته نحو السّقوط بنوع من الأسى والألم، وتغنى بمعالم الحضارة الفارسيّة تلميحاً منه على الدّولة العبّاسيّة، ما من شأنه أن يثير الحماسة واستنهاض الهمم على ضرورة الوقوف في وجه الأتراك، والحفاظ على الدّولة العبّاسيّة. كما يتّضح من خلال السّينية أنّها تصلح لأن تكون وثيقة تاريخيّة قارّة للأزمة الرّاهنة وتنبئ لما يحدث من أزمات في الوطن العربيّ نتيجة التّأثير والتّأثر، والصّراع والخلافات. كلّ ذلك أعاد البحري صياغته في قالب فنّيّ هيمن على النّصّ فأعطاه دلالة حسّيّة إلى جانب مرجعيّة اللّغة من خلال اعتماده على ألفاظ فارسيّة. وليس معنى هذا أنّ الشعر رهينة التّاريخ وحقائقه، وإنّما هو استحضار يضي عليه الشّاعر بعداً يستجلي من خلاله صورة العصر وأحداثه.

لمّا نقرأ النّصّ نلتصّب أحداثاً متنوّعة تستحضر ذاكرة أو تاريخاً تراكمياً يبرز ثقافة واسعة للبحري، وتجارب فنّيّة قام خياله فيها على بناء معماريّ جماليّ لهذا النّصّ الذي يعدّ مخزوناً ثقافياً تاريخياً لتجارب سابقة قام ببلورتها في شكل نمط سرديّ وصفيّ. فانتقى واختار من التّجارب ما أثار وأثر على ذاته الدّفينيّة، وعلى تحريك مشاعره وأحاسيسه وموهبته. فلا يمكن لنصّ أن ينتج من العدم، كما أنّ ما يحمله هذا النّصّ من معالم ومعاني صالحة لأن تستمرّ دهوراً من الرّمن، وهو وضع الإنسانيّة عامّة وإن اختلفت العصور.

فطيمة خياري

وتأسيسا على ما سبق فإن المتأمل لقصيدة البحري يجدها غنية بالتراث الأدبي والتاريخي والديني، وكان خير من مثل المجتمع العباسي، خصوصا وأنه كان شاعر البلاط في عصره بلا منازع. فكشف لنا الشاعر رؤيته للواقع، محاولا البحث عن ذاته التي فقدتها في خضم الصراع الذي عانت منه الدولة العباسية تحت وطأة الأتراك، وهو واقع عرف بالمتناقضات. فراح يعبر عن هذا المجتمع مستلهما إياه من خلال الوقوف على الطلل الفارسي، وهو في السينية يحاور التاريخ والشعر القديم والأفكار الإسلامية. فجاءت أفكاره فيها تأمل وترتيب وتسلسل، ولكنها بعيدة عن التعقيد والغموض، فهي واضحة تكشف عن صفاء الذهن وحسن التفكير. وكان معبرا لواقع من خلال حسن اختياره لألفاظ محكمة الصياغة بعيدة عن التكلف والغرابة.

6. خاتمة: وفي الختام نخلص إلى مجموعة من النقاط الأساسية متمثلة في:

1 - تميز العصر العباسي بعدة منعرجات خطيرة أيام البحري السينية كانت معلما تاريخيا، وبنية شعرية معقدة ساهمت في كشف الغموض التاريخي والتفسي للشاعر، فكانت مفتاحا للولوج إلى عاطفة الشاعر الحزينة والمتألمة لاتصالها الدفين بذاته. فكان النص الشعري متنوع الدلالة يمكن إدراج أكثر من تأويل له نظرا لعمق إحساس الشاعر بالواقع المعيش مقارنة بالماضي. واستحضاره للتاريخ كان بابا رسم لنا فيه معالم الحضارة الفارسية ممزوجة بأفكاره الجديدة التي ضمّنها في السينية. فأنتجت لنا نصا شعريا ذو خلفيات متعددة عاشها الشاعر، وحاول إيجاد مصوغات لها بمرجعية تاريخية من خلال تتبعه للمسار التاريخي للأحداث عهد الدولة العباسية.

2 - جاءت القصيدة في مجموعة من مشاهد، يرتبط كل بيت فيها بأخر، فيكون الأول نتيجة الآخر، من خلال تمثيل البحري لجوانب من حضارة آل ساسان وما آلت عليه مع مرور الزمن بحاله الرهانة، وحال عصره الأيل للزوال تحت سيطرة

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

الأتراك. إنّ هذه المشاهد التي يصوّر لها البحري إنّما هي انعكاس لنفسيته الحزينة والمتألّمة، ولحال واقعه المعاش في عهد الدولة العبّاسيّة .

3- إنّ تحليلنا الدلاليّ لسينيّة البحري يُلخّص جوهر الوجود من خلال تساؤله الذي يجد نفسه متناقضاً فيه: هل يظلّ مقيماً في الحال التي هو عليها فيغدو (طلائاً) تأكله الهموم، كحال إيوان كسرى، أم يرحل فيغترّب بحثاً عن الاستقرار.

ومن ثمّة تعكس النصوص الشعريّة القديمة إحياء شعر، يحقّق لنا استيعاباً دقيقاً يلملم شتات الوقائع التاريخيّة وإعادة إنتاجها في شكل شعريّ تتناغم حروفه لتقوم بتمثيل حيّ لتلك المشاهد. الأمر الذي يستدعي الفحص والتّقيب عن واقع مرّ عليه زمن طويل، لكنّه أثر وما اندثر.

فطيمة خياري

قائمة المراجع:

- ابن الأثير: 1939 م، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دط، القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، ج 3.
- ابن منظور: *لسان العرب*، دط، القاهرة، دار المعارف، المجلد 6.
- البحثري أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي: دت، *ديوان البحثري*، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط 3، القاهرة، دار المعارف، المجلد 2.
- الطبري: دت، *تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم*، ط 2، دار المعارف مصر، ج 9.
- اليطي صالح حسن: دت، *البحثري بين ناقدية قديما وحديثا*، دط، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب.
- الصولي أبو بكر محمد بن يحيى: 1378هـ-1958م، *أخبار البحثري*، تحقيق: الدكتور صالح الأشر، ط 1، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي القيرواني الأزدي أبو علي الحسن بن رشيق: دت، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دط، بيروت، دار الجيل، ج 2.
- حنا الفاخوري: 1986م، *الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم*، ط 1، بيروت، دار الجيل.
- طه وادي: 1994 م، *جماليات القصيدة المعاصرة*، ط 3، القاهرة، دار المعارف.
- مفتاح محمد: دت، *تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)*، دط، المغرب المركز الثقافي العربي.
- عقيل الطيب عبد الرحمن محمد: 2006 م، *أثر الإسلام في شعر البحثري* (رسالة الماجستير)، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.
- فوزي عيسى: 2011 م، *صورة الآخر في الشعر العربي*، دط، دبي.

البعد التاريخي وعلاقته بالجانب الدلالي في "سينية البحري"

خفاجي عبد المنعم: 2004م، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ط 1، الإسكندرية، دار وفاء لندنيا للطباعة.

ضيف شوقي: 1973 م، تاريخ الأدب العربي 4 (العصر العباسي الثاني)، ط 2، مصر، دار المعارف.

ضيف شوقي: 1987م، الفن ومناهجه، ط 11، القاهرة، دار المعارف.